

التجربة الشبابية في فلسطين

نزار بنات\*

## الحراك الشبابي الفلسطيني... تساؤلات الاستقطاب

يكفي لتحقيق قفزة مطلبية ثورية. وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من إشكاليات الحركات، وتباطؤ وتيرتها، ليس ناجماً عن خلل ذاتي في الحراك، بقدر ما هو ناجم عن عجز الحراك عن الإمساك بطرف الفتيل، لضخامة حجم الخلل الفلسطيني، واتساع رقعة الشبكة المطالبة الفلسطينية وكثرة عقدها.

### العمل التراكمي

لم تنفجر الجموع العربية في تونس فجأة، بل كان الشارع محتقناً بشكل كبير، أي أن التغيير لم يأت عبر تعبئة الشارع، وإنما عبر التقاط اللحظة الملائمة للخروج، فقبل أربعة أعوام من الثورة كانت انتفاضة الحوض المنجمي قد عرت المدافعين عن النظام التونسي وحيّدت الأصوات المروجة له. وكذلك في مصر، فإن انتفاضة المحلة وإضرابات عمال الحديد وبروز حركة "كفاية"،

الحكمة السياسية: الأغلبية  
تقول الصامته لا تصنع

ضجيجاً لكنها تصنع التاريخ، وهذا بالفعل ما حدث في تونس ومصر واليمن وليبيا، فالزعماء في تلك البلاد ملأوا الدنيا ضجيجاً، أمّا الجمهور الصامت فغاب واستتر وراء صورة الزعيم عقوداً طويلة، حتى ذابت صورة تلك الأغلبية تماماً، ولم نعد نسمع لها إلا بعض الصرخات، لكنها انتفضت فجأة وصنعت التاريخ.

على هذا الإيقاع، انطلق بسرعة كبيرة الحراك الشبابي الفلسطيني، وتشكلت عشرات، وربما مئات، المجاميع المطالبة: الشعب يريد، الشعب يريد. ولم يتحقق شيء مما أراده الشعب، ليس بمعنى أن الشعب لا يريد، لكن بمعنى أن الشعب لم يخرج إلى الشارع ملتفاً حول مطلب واحد، وعلّة ذلك أن الحركات الشبابية الفلسطينية لم تصل بعد إلى درجة استقطاب الجمهور بما

\* ناشط سياسي شبابي، الخليل.

يمكننا القول بلا تردد، إن على الحركات أن تفكر في كسر الحاجز النفسي بينها وبين الناس. فالحركات الشبابية مطالبة بصك براءة - مسبق الدفع - كي تنجلي عن الشباب غيمة القناعات السيئة والشائعات، ويجدر بها أن تفكر في أسلوب جديد يجعلها مقبولة أكثر، حتى لو وصل الأمر إلى صدام ما مع جهة ما في سبيل تحقيق مطلب يريده الجمهور فعلاً.

### الشيفرة النفسية للجمهور

#### الفلسطيني

كيف تقنع جمهوراً - مرت عليه عشرات النماذج القيادية، كالشعب الفلسطيني - بأن يتبع شباباً خارجين من المجهول؟ وكيف نلبي ذوق هذا الجمهور؟ ما هو الخطاب الذي يجب أن يميز الحركات الشبابية؟ هل هو خطاب تعبئة لخطوة الحراك، أم إنه خطاب تفكيك للخطاب السلطوي السائد؟ من هو عدو الجمهور كي تحاربه الحركات؟ هل صار شعبنا يمقت الكاريزما، أم بات يريد نوعاً آخر منها؟ ما هي مواصفات البطل الجديد التي يريدها الشعب الفلسطيني؟ وما هو ثمن اقتناع الشعب بالتيار القيادي الجديد؟ هل وقوف الحراك الشبابي موقف الناقد الراضٍ يمنحه الحق في منازعة فصائل قدمت فاتورة دم باهظة، أم إن على الحراك أن يدفع ثمناً من أجل الوقوف في وجه المتاجرين بتلك التضحيات؟ هذه أسئلة لا يمكن الإجابة عنها بسهولة، ومن دون الإجابة سيظل الحراك مرواحاً مكانه.

#### حل سر الكاريزما

من سمات المرحلة السابقة في التجربة الفلسطينية طغيان كاريزما الفرد على معظم الفصائل. وهذه السمة تطرح تساؤلاً ملحاً

جميعها أوصل الشارع المصري إلى حالة اللاعودة، لكن الجمهور ظل منتظراً اللحظة. أمّا الحراك الشبابي في فلسطين - وعلى الرغم من المحاولات المحمومة والعمل الكبير الذي يتم على الأرض - فلم يأخذ التفويض من الجمهور الفلسطيني، بامتلاك الحيز العام، والكفاح من أجل مطلب جمعي. ومع أن شباب الحراك يبذلون جهداً كبيراً في تكتيف العمل، واستقطاب الجمهور، إلا إن الوتيرة غير مبشرة حتى اللحظة، فوتيرة الصدام أو الاحتجاج التي يقومون بها، أو سخونة المطالب، لا تكفيان لحشد الناس، بل إن الحركات الشبابية لم تتغلب على مشكلة قلة العدد بمحاولة توحيد الحركات في فاعلية واحدة، الأمر الذي يضع عدة أمور موضع تساؤل.

### صورة الحراك في أعين الجمهور

لقد مر على الشعب الفلسطيني كثير من القادة والمنظرين، ودفع هذا الشعب كثيراً من ماله ودمه من أجل أصحاب الكلمات الجميلة، والنتائج المؤلمة. ومن الصعب على شباب الحراك الشبابي أن يشدوا جمهوراً بهذا المستوى من الإحباط. وهنا، علينا أن نخرج من إطار قناعتنا بحسن نية الحركات الشبابية، وحسن أدائها، وأن نسأل الجمهور بدلاً من ذلك، وسنجد أن الجمهور الفلسطيني يحمل انطباعات متنوعة. فكثير منه لم يسمع بهذه الحركات، وكثير منه يتهم الحراك بالتبعية لمؤسسات "الجوسسة" المتنكرة في فلسطين. وإذا أخذنا في الاعتبار القناعة المصدقة في الشارع - والمروج لها سلطوياً - بأن هؤلاء الشباب مسيروون بأيدٍ خفية، وتنطبق عليهم حالة وائل غنيم في مصر كما رُوج، ووضعنا هذه التصورات في اعتبارات التجربة النقدية للحراك الشبابي،

لوجود مراكز القرار فيها، واقترب أهلها من همسات السياسة التي تضيء النور الأحمر بضرورة التحرك، أمّا في الخليل، فالهمّ السياسي متضائل لمصلحة الهمّ الاقتصادي. كما أن التركيبة الوظيفية لسكان رام الله تجعل المطلب الاقتصادي يتأخر نوعاً ما عن السياسي، بينما المطلب الاقتصادي في الخليل ونابلس، يشكل وتراً حساساً. وطولكرم لها هموم مختلفة، وكذلك جنين. وإذا كان البعد الجغرافي بين المعازل الفلسطينية أنتج مشكلة في التواصل بين الفلسطينيين، فإن البعد النفسي والاجتماعي في عقلية أبناء تلك المناطق يوجب علاجاً سريعاً، إمّا بالحراك الموحد لتعويض قوة العدد، وهي خطوة لوجستية مكلفة، وإمّا بالحراك الموازي، وهي خطوة صعبة التحقيق بسبب اختلاف المزاج الشعبي بين المناطق، وتفاوت اجتهادات فقه الأولويات بينها.

### التشتت الذاتي والموضوعي

تتضح عوامل تشتت الحراك في المستوى الموضوعي، في مشكلة البانتوستان، ومشكلة البالونات السياسية المتسارعة التي تنفّس احتقان الشارع وتجمّده في مربع الانتظار، مثل "استحقاق أيلول"، والمصالحة، والانتخابات، والمفاوضات الاستكشافية، والإجراءات الاقتصادية التقشفية، وهذه البالونات أسرع من قدرة الشباب على الانتظام، وعلى حشد الشارع. أمّا عوامل التشتت الداخلي، فهي الأكثر خطورة. فالحركات الشبابية حتى اليوم لا تستطيع الانتظام على هدف واحد وأن تمسكه وتتنقه، وتعاني البنية التنظيمية للحراك جزءاً الاعتماد على الأصدقاء، أو على قيادات الحركات، من دون إيجاد بنية

يتعلق بالحركات الشبابية. فقد نجحت هذه الحركات لأول مرة في تجاوز عقدة كاريزما الفرد القائد، لكنها، في المقابل، لم تستطع إبراز كاريزمات متناوبة على الأقل من أبنائها الذين يمكنهم التأثير في الجمهور. فاعتیاد الجمهور غياب كاريزما الفرد لا يعني بالضرورة أن المجتمع تجاوز المشكلة، وإنما ربما يكون غياب هذا النوع سبباً في تباطؤ الحراك - الفطام المفاجئ للمجتمع من الكاريزما الفردية قد يدخل المجتمع في حالة بحث - كذلك لا بد من الانتباه إلى كاريزما الجماعة أو التنظيم، وهي الحالة الصحيحة التي يجب الوصول إليها، عبر إنجازات حقيقية، وعبر كاريزما الخطاب. ولعل كاريزما الخطاب هي اللغز الأكثر أهمية، فخطاب الحركات الشبابية لم يصل إلى الحد المدوّي الذي يقنع ويشد ويفك المنطق الآخر. إن كاريزما الفرد ما عادت أمراً مقبولاً، لكن كاريزما الحراك وكاريزما الخطاب الجديد أمران لا بد من البحث فيهما إذا ما أراد شباب الحراك أن يحلوا مشكلة الاستقطاب.

### مشكلة البانتوستان

أعدت إسرائيل إلى المجتمع الفلسطيني حالته التاريخية قبل آلاف السنين، وهي ممالك المدن، ويعبر عنها اليوم بكلمة البانتوستانات، أو المعازل، وهذا تحدّ جدير بالتحليل. فالوطن المعنوي للفلسطينيين - منظمة التحرير - كان يجمع هذه المعازل في حركات كبيرة مؤثرة، ويعبر عن إرادتها الجمعية في الداخل والخارج. أمّا الحركات الشبابية، فتتعامل مع معازل شديدة البعد النفسي والاجتماعي من دون أن تملك إعلاماً قوياً لتوجيه خطابها وتركيزه. فرام الله مثلاً تنشيط في الحراك السياسي

فهل أوصل الحراك هذه الرسالة، أم أعطى الجمهور انطباعاً بأنه مجرد حراك مخملي قصده التنفيس؟! احتشدوا واطلبوا، ثم صعدوا إلى أن تحقق ما تريد، وإذا فضت الفاعلية بقوة البوليس، فهذا هو السلوك الطبيعي لجرّ الآخر إلى حالة الانتحار الأخلاقي. ولا بد للحركات من إيقاف القمع الناعم للآخر. فالحراك يبدأ الفاعلية ثم ينسحب منها، من دون أن يكلف الآخر أي خسارة، ولو على المستوى المعنوي. وعلينا أن نتذكر أن شعبنا يبيع الفصائل بحسب كمية دمائها، وقياساً على ذلك لا بد للحراك من تلقّي بعض العصي وبعض التنكيل. إن تكرار النزول عن الشجرة من دون ثمن ربما يكون كفيلاً باغتيال الحراك في أعين الجمهور.

### الحذر

تتميز الحركات الشبابية بوعي كبير بمدى تعقيد الوضع الفلسطيني وهشاشته. فشباب الحركات يعرفون تماماً أن الإصرار على مطلب سياسي صغير ربما يقود إلى تفكك منظومة كاملة، فينهار الوضع بمجمله. وهذا الحذر مبرر، لكن هنا يقفز سؤال ملح: هل نريد تفكيك المنظومة، أم إننا ننتظر أن تتفكك بفعل من الخارج؟ وإذا فككنا المنظومة السياسية القائمة - على الرغم من خطورة ذلك - فربما يستطيع الحراك والشارع أن يشكلا شبكة أمان للبدائل المتاحة. أمّا انتظار الفعل الخارجي لتفكيك المنظومة السياسية، فيعني الركوع للأجندات الخارجية. وخوف الحركات مبرر، لكن انهيار الوضع بأيدٍ أجنبية، ومن دون حراك يعرف ما يريد، سيودي بنا إلى الهاوية. إن الحراك لا يستطيع التعامل مع انهيار الأوضاع إلا بصوغ أدبيات سياسية

تنظيمية موحدة على أدبيات سياسية جديدة. فحين يكون الحراك "أ" منخرطاً في الفاعلية مع الحراك "ب"، يكون أداء الحراك "ب" أقل تركيزاً في الفاعلية لأنه مشغول بترتيب فاعلية أخرى. فمثلاً، حين كان حراك رام الله مشغولاً بالانقسام، كان جنوب الخليل مشغولاً بفساد إحدى شركات الكهرباء، بينما تنشغل حركات القدس بمطاردات مضمّنة للفاعليات التطبيعية. إن انعدام التواصل الجغرافي، واختلاف المزاج المناطقي، أفرزا حركات شبابية تتصرف مناطقياً، وهذا الإشكال بحاجة إلى وقفة تأمل طويلة؛ هل نتخلص من الحراك المناطقي لمصلحة الحراك الطبقي، أم السياسي، أم إن هناك خطاباً يمكن أن يكون جامعاً؟

### النزول عن الشجرة

إن العامل الأكبر في إبعاد الجمهور عن الحركات الشبابية، هو أن الحركات لم تكن عنيدة بما يكفي من أجل تحقيق مطالبها، فهي تطلق المطلب ولا تتابعه بإتقان. والاعتصام من أجل الاحتجاج ليس مقنعاً للجمهور، وإنما يجب الدفاع عن المطلب الحراكي بأساليب متنوعة، وعدم ترك المطلب إلى أن يتحقق، ولو تسبب ذلك بالصدام. إن الصدام يعني أن الحراك يدفع ثمناً معقولاً يمكنه من الدفاع عن نفسه، وشد المجتمع إلى صدقيته، أمّا أن ينسحب شباب الحراك بهدوء، ومن دون تحقيق شيء، فهذا يعني أنهم نزّلوا عن الشجرة من دون قتال، ولا فدائية حقيقية. هكذا يفهمها الجمهور، علماً بأن شباب الحراك يقصدون تحريك أكبر عدد من القضايا من دون تعريض الحراك للخطر، وذلك بقصد بناء خبرة تراكمية، وتواصل مع الجمهور يوصل إلى مرحلة قيادة الشارع.

العوامل السابقة - تفتقر إلى الفاعلية المنظمة والمتدرجة التي يمكنها الدفع في اتجاه التغيير.

وليس للحركات أذرع منظمة وسط الشرائح المجتمعية - حتى في المدينة الواحدة - فليس هناك برنامج تعبئة واضح للحركات؛ وفي حين يتساءل الناشطون كيف يمتدون في أوساط المعلمين، والطلبة الجامعيين، والعمال، وغيرهم من الشرائح، نرى أن الاعتماد يكون على الأصدقاء، وأصدقاء الأصدقاء، الأمر الذي يجعل التوسع بطيئاً جداً إذا ما قارنا الحراك بالفترات الزمنية التي نشأ فيها ووصل إليها.

إن العقل التنظيمي التقليدي للشباب المدربين في الفصائل ربما يحمل بعض الأمراض، وأهمها الحس التأمري، والحذر الزائد من الرفاق أو الزملاء، لكن التدريب التنظيمي يمكن البناء عليه، بوضع ضمانات القيادة الجماعية، وهي مشكلة حلته الحركات بسهولة، على مستوى إدارة الفاعليات، إلا إنها أخفقت في حلها على مستوى التوسع والحشد.

### قوة العدد

تعتمد الحركات الشبابية بشكل كبير في صفحات "الفايس بوك"، دعوة مجموعة كبيرة، وغالباً ما ينوي عدد كبير الحضور. أمّا من يحضر، فأقل بنسبة تثير القلق. إن النواة المستعدة للعمل دائماً تكون موجودة، أمّا الآخرون، فتكون الفاعلية بحسب فراغ برنامجهم اليومي، ومردّ هذا إلى كون الحركات الشبابية لم تتقن لعبة الحشد بعد.

فالحشد يتطلب توزيع مهمات على القطاعات المتعددة، وتهيئة الأجواء للفاعلية اعتماداً على وسائل الإعلام المتاحة، وخصوصاً الإذاعات المحلية، إذ يجب إيصال

جديدة، وبرنامج واضح لإصلاح الوضع الفلسطيني. وهنا لا بد من إرداف الحراك الشبابي بدائرة من المفكرين الاستراتيجيين. والحذر الزائد لدى الحركات الشبابية يتلخص بالأمر التالي:

- الخوف من قفز التنظيمات على الحراك.

- الخوف من دخول البلد في دوامة الفوضى.

- الخوف من انعدام البديل أو القدرة على توفيره.

- الخوف من عودة الحكم العسكري الإسرائيلي.

وهنا لا بد من القول مجدداً إن ظهور البدائل في الاقتصاد والسياسة بأقلام المفكرين سيعين الشباب في الحراك على تجاوز عقدة الحذر الزائد. ولا بد للشباب في الحركات المتعددة من أن يعرفوا جيداً أن الإمساك بمعول الهدم سيجعلنا قادرين على التحكم في حجم الهدم، وسيساعد على البناء، لكن انتظار الهدم بأيدي خارجية، يعني تسليم مستقبل القضية إلى المجهول.

### العمل الإداري التنظيمي ومشكلة

#### التواصل

بقياس أعمار الناشطين الشباب وخلفياتهم، يمكن تصنيفهم إلى فئات رئيسية هي: شباب حزبيون نالوا تربية تنظيمية؛ أنصار أحزاب تلقوا ثقافة سياسية غير تنظيمية؛ مستقلون غير تنظيميين. وهذه الفئات المتنوعة اتفقت على أرضية مشتركة للعمل، لكنها غير قادرة على درجة كره مطلوبة كبيرة. وكثيرون من الناشطين - حتى الذين تلقوا تدريبات تنظيمية - فاجأتهم ثورتا مصر وتونس، وبنوا على أساليبهما، وحققوا نتائج جيدة، لكنها - بالنظر إلى

### المعضلة اللوجستية

إنها أكبر المعضلات، فالحراك الشبابي محروم من قوة الحشد والتأثير لأنه يعتمد على قدرات الشخص، كما أن الحراكات لم تحاول الاعتماد على قوة تمويل ذاتية، ولو بجمع اشتراكات شهرية بحسب دخل أفرادها، وإعانة الذين لا يستطيعون كي يتمكنوا من الانخراط في العمل. إن الركون إلى "الفايس بوك" أضر بتطور الحراك الشبابي كثيراً، لأنه جعل الكل يتساوى في الحق والواجب، الأمر الذي أعطى أي متأخر عن العمل عذراً، وأسقط جانب الواجب والمساءلة. وهذا سبب نقصاً كبيراً في مسألة التفرغ للإعلام والحشد والتواصل الشخصي. إن تشكيل نواة تواصلية على الأرض يحتاج إلى منسق على الأقل لكل مئة ناشط، وهذا المنسق يترتب عليه عبء مالي في الاتصال والتنقل من مدينة إلى أخرى، وهو ما يضع الحراك أمام معضلة كبيرة، فالتغيب والتقصير يمران من دون مساءلة، لأن الحراك أشبه بالعمل التطوعي، وهذا يفجر تساؤلات كبيرة، منها:

- هل الحراك عمل تطوعي أو تنظيمي؟
- هل تستطيع الحراكات تمويل ذاتها؟
- هل تستطيع الحراكات أن تكون نزيهة إذا قبلت التمويلات؟
- هل على الحراكات أن تبحث عن منسق غني، أم إن عليها تحمّل هذا العبء والإنفاق على منسقيها؟
- هل تستطيع الحراكات أن تتطور إذا لم تطور تواصلاتها؟
- هل تستطيع الحراكات أن تحتشد في محافظة واحدة، أم إن عليها بناء حراكات موازية؟ فإحضار جمهور من مختلف المدن إلى رام الله مثلاً، أمر لا يستطيع الحراك أن يتحمّله لوجستياً، كما أن تناثر الحراكات

الرسالة إلى الجمهور بأن هناك أمراً خطأ ويحتاج إلى التصويب. وهذه الحالة تقود إلى إحداث التساؤلات في الشارع، والبحث عن الحراك عبر "الفايس بوك"، أو عبر أساليب أخرى، كذلك لا يستخدم الناشطون قوة العدد في أيام الجمعة، بتوزيع المنشورات في المساجد. إن مجرد إشعار المجتمع بالفاعلية ربما يكون أقوى تأثيراً في صانع القرار من أن يعتصم بعض الناشطين أمام مكاتبهم. كما أن تسخين الأجواء ضروري لرفع حالة الاحتقان، وهذا أمر برعت فيه الحراكات على مستوى "الفايس بوك"، لكنه لا يكفي.

كذلك، لم يستخدم الحراكيون الشباب قوة العدد عبر إنشاء أذرع جامعية. فاستنكاف الطلبة مثلاً عن حضور محاضرات لأستاذ جامعي متورط في التطبيع - فضلاً عن اعتصام قريب - أبلغ أثراً من آلاف الكتابات في "الفايس بوك". والمعلمون، وإن كان وضعهم النقابي بائساً، إلا إنهم يستطيعون الإفلات من قبضة النقابة في اتجاه الحراكات الشبابية، وإعطاء أي حراك قوة عددية ممتازة. إن التهيئة الإعلامية للحدث، وإدخال الجمهور في الفاعلية، سيعطيان الحراكات فرصة ممتازة لتفريخ مجموعات قيادية جديدة يمكنها زيادة التأثير. أمّا "الفايس بوك"، فأمر يجب الخروج من سحره. نحن في فلسطين.

### التسييس

يصطدم كثير من الفاعليات بانسحاب العناصر المسيسة، الأمر الذي يلحق ضرراً كبيراً بالقدرة على الحشد. ولا يمكن حل هذه المشكلة إلا ببناء أدبيات سياسية جديدة تقنع عدداً معقولاً من الشباب، ولا سيما الجامعيين. وبدلاً من نزيف الحراك، يمكن الاستفادة من حالة اللابيين التي يعانيتها أبناء الفصائل من أجل استقطابهم.

الحراك الشبابي يبقى حالة من الوعي يراهن عليها، وهو ضامن حقيقي للتغيير الآمن في اتجاه الأفضل، لكن بشرطين أساسيين: أن يقترب من الجمهور أكثر، وأن يقترب من النخب ويحوّل خطابها إلى مفردات سياسية يمكن تسليح الجمهور بها. ■

الموازية في المدن يضعف قوة العدد، وهذه إحدى أكبر مشكلات الحراك.

### الخلاصة

على الرغم من جميع المعوقات، فإن

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات من أوسلو إلى خريطة الطريق

أحمد قريع (أبو علاء)

١

مفاوضات أوسلو

١٩٩٣

٥٣١ صفحة ١٥ دولاراً (تجليداً عادياً)  
٢٠ دولاراً (تجليداً فنياً)

٢

مفاوضات كامب ديفيد

(طابا واستوكهولم)

١٩٩٥ - ٢٠٠٠

٥٠٥ صفحة ١٥ دولاراً (تجليداً عادياً)  
٢٠ دولاراً (تجليداً فنياً)